

التفسير الحلولي لمسألة الخلق في التصوف اليهودي

*The Solving Interpretation of the Question of Creation in Jewish Mysticism*د/فضيلة سنوسي^{*1}،¹ جامعة الدكتور الطاهر مولاي، سعيدة (الجزائر)، fadila.senouci@univ-saida.dz

تاريخ النشر: 2022/05/05

تاريخ القبول: 2022/02/12

تاريخ الاستلام: 2021/10/23

ملخص: نتناول في هذه الورقة البحثية التفسير الحلولي لمسألة خلق العالم وكذا طبيعة الإله وعلاقته بالموجودات (الإنسان والطبيعة) من منظور التصوف اليهودي والذي يعرف باسم الكبالاه، حيث نبين معالم التفسير الحلولي في الفكر القبالي من خلال التطرق إلى بعض المفاهيم التي عرف بها الفكر القبالي والتي تعكس الطابع الحلولي في تفسير القباليين للكيفية التي خلق بها الله العالم، منها مفهوم السيفيروت أو التجليات النورانية العشرة، وهو مفهوم جاءت به قبالة الزوهار (القبالة النبوية) وكذلك مفهوم الانكماش الإلهي وإصلاح الخلل الكوني؛ وهي مفاهيم عرفت بها في القبالة اللورانية، وهي جميعها مفاهيم تبرز بوضوح التفسير الحلولي الباطني لعملية خلق العالم أو مخطط الإله في بناء الكون، وكذلك تفسير علاقة الإله بالشعب الإسرائيلي والذي يبرز فيه أيضا الطابع الحلولي لفكرة شعب الله المختار.

الكلمات المفتاحية: القبالة، خلق العالم، الحلول، السيفيروت، الانكماش الإلهي.

Abstract:

In this research paper, we discuss the pantheistic interpretation of the question of the creation of the world, as well as the nature of God and its relation to the existent (man and nature) from the perspective of Jewish mysticism, known as Kabbalah. pantheist in the Kabbalists' interpretation of how God created the world, including the concept of the sefirot or the ten luminous manifestations, a concept which she opposed to the Zohar (prophetic Kabbalah) as well as the concept of the contract of repair of the cosmic imbalance; These are concepts that were known in Lurian Kabbalah, and these are all concepts that prominently emit the mystical interpretation of the process of creating the world or God's plan in building the universe, as well as the interpretation of God's relationship with the Israeli people, which also highlights the pantheistic character of the idea of God's chosen people.

Keywords: midwife, creation of the world, solutions, sephirot, divine contraction

*المؤلف المرسل

1. مقدمة: اهتمت العديد من الديانات والفلسفات بتفسير أهم مسألة أثارت ولا زالت تثير تساؤلات الإنسان، وهي مسألة خلق العالم، وقد تضاربت الآراء حول طبيعة العلاقة بين الإله والعالم، بل وتضاربت أيضا حول طبيعة الخالق (الموجد)، ومن بين التفاسير التي قدمت حول هذه المسألة نذكر تفسير الديانة اليهودية؛ والذي اتسم بطابعه الغنوصي - الحلولي-، حيث يظهر ذلك جليا في معنى فكرة شعب الله المختار وأرض الميعاد الواردتان في التوراة والتلموذ، وقد قدم المذهب الصوفي اليهودي والمعروف لدى اليهود باسم الكبالاه (القبالة: Kabbalah) تفسير لمسألة الخلق، وكذا طبيعة الإله، وهو تفسير أهم ما قيل عنه أنه حلولي. لذا سنحاول في هذه الورقة أن نبرز معالم الحلولية في التفسير القبالي (الكبالي) لمسألة الخلق، وبتوظيفنا للمنهج الجنيالوجي التحليلي، سنحاول التأصيل لمعنى الحلول لديهم، وكيف تطور تفسيرهم الحلولي لمسألة الخلق جنيالوجيا.

وعله، نطرح التساؤل التالي:

- أين تتجلى معالم الحلولية في الفكر لقبالي؟

- وكيف وظف القباليون فكرة الحلول في تفسيرهم للكيفية التي خلق بها الله العالم؟

2. التعريف بالقبالة (الكبالاه: Kabbalah):

الكبالاه اسم يطلق على مذهب صوفي باطني حلولي يهودي، وهذا ما يشير إليه الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري في موسوعته إذ يقول: "يعرف التراث الصوفي اليهودي باسم القبالة التي مرّت بمراحل عديدة، أهمها قبالة الزوهار وتسمى أيضا القبالة النبوية والقبالة اللوريانية التي يمكن أن تسمى القبالة المشيخانية، أما كلمة صوفية فلها داخل النسق الديني اليهودي دلالات خاصة، فهذا النسق يتسم بوجود طبقة جيولوجية ذات طابع حلولي قوي تراكمت داخله ابتداء من العهد القديم مروراً بالشرعية الشفوية، وقد انعكست هذه الحلولية من خلال شيوع أفكار مثل الشعب المختار وأمة الروح والأرض المقدسة"¹، يتبين من خلال هذا النص أن القبالة، لها مرجعية دينية، أي أن أفكارها وتصوراتها مستوحاة من العهد القديم (التوراة)، وكذا التلموذ، كما أنها مذهب صوفي باطني حلولي، وهو مذهب فسر نصوص التوراة تفسيراً باطنياً، فهو لا يأخذ بالمعنى الحرفي الظاهر للنص التوراتي.

ويضيف الدكتور عبد الوهاب المسيري في تعريفه للقبالة قائلاً: "القبالة هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود، والاسم مشتق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل، أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي للتقاليد والتراث، أو التقليد المتوارث، وكان يقصد بالكلمة أصلاً تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يعرف باسم الشريعة الشفوية، ثم أصبحت الكلمة تعني من أواخر القرن الثاني عشر أشكال التصوف والعلم الحاخامي المتطورة، إلى جانب مدلولها الأكثر عموماً باعتبارها دالاً على سائر المذاهب اليهودية الباطنية منذ بداية العصر المسيحي، وقد أطلق العارفون (بأسرار القبالة (مقوباليم بالعبرية) والقباليون بالعربية، على أنفهم لقب العارفون بالفيض الرباني"²) إلى معنى القبالة قائلاً: "كلمة قبالة هو باختصار مصطلح يشير إلى (Joseph Dan) ويشير جوزاف دان (لحقيقة التي تلقاها موسى عن الله"³).

أما شالوم غارشوم (Scholem Gershom) فيعرف القبالة في قوله: "... هي المصطلح التقليدي الأكثر استعمالاً، والذي يفيد التعاليم الباطنية للديانة اليهودية، والتصوف اليهودي خاصة الأشكال التي اتخذتها في القرون الوسطى ابتداءً من القرن الثاني عشر وما بعده، فهي تفيد في معناها الواسع كل الحركات الباطنية المتعاقبة في اليهودية التي تطورت انطلاقاً من فترة نهاية المعبد الثاني وأصبحت عوامل فاعلة في التاريخ اليهودي"⁴. ما نلاحظه من خلال كل هذه التعاريف أن جميعاً تؤكد أن القبالة مذهب صوفي باطني حلولي يهودي، لكن هناك من اعتبر القبالة علم يجمع بين ما هو نظري وما هو عملي، وهذا ما يؤكد عليه الدكتور والبيولوجي اليهودي معلم الحكمة القبالية ميخائيل لايمان حيث يقول: "علم القبالة هو نظرية وطريقة يتعرف الإنسان من خلالها على معرفة وإدراك العالم الروحي، فهذا العلم يشرح لنا العالم الروحي من خلال دراسة تفصيلية للمخطط البياني الذي بني عليه الكون بأشمله، ويعلمنا كيف نحصل على الحاسة المناسبة لإدراك هذه المعرفة فمن خلال هذه الحاسة الجديدة والتي تدعى الحاسة السادسة يستطيع الإنسان الإحساس بالعالم الروحي، علم القبالة ليس هو علم ذو دراسة نظرية فحسب ولكنه علم عملي جداً فمن خلاله يتعلم الإنسان عن نفسه من هو وما هي طبيعته البشرية، ويتعلم كيف يكون باستطاعته تغيير نفسه في كل مرحلة من مراحل تصحيح الأنا لديه وخطوة بخطوة وكيف يكون بإمكانه أن يدير بحثه من نفسه وعلى نفسه وفي داخل نفسه، ولهذا السبب دعت الكبالا بالحكمة

الخفية فمن خلالها يخضع الإنسان إلى تغييرات داخلية هو الوحيد الذي يعيها ويشعر بها في داخله"⁵.

1.2 تاريخ نشأة القبالة (الكبالة)::

والجدير بالذكر أن تعاليم القبالة في بداياتها الأولى كانت تنقل من المعلم إلى المريد (التلميذ) شفاهة وبطريقة سرية جدا، لتصبح لاحقا تلقن هذه التعاليم بطريقة علانية في مدارس خاصة بتعليم الحكمة القبالية، أما عن تاريخ نشأة الكبالة فإن القباليون يؤكدون أن تعاليم الكبالة صدرت عن الله وهذا ما يشير إليه صموئيل ليدل ماكجريجور ماذرز (1854-1918) حيث يقول: "تعاليم القبالة علمها الله أولا لجماعة مختارة من الملائكة والذين شكلوا بدورهم مدرسة صوفية في الجنة، وبعد هبوط آدم من الجنة إلى الأرض قامت الملائكة بكثير من اللطف والعناية بإبلاغ هذا المذهب للطفل العاصي في الأرض - آدم عليه السلام- ليزوده بدوره إلى طبقة السعداء والنبلاء، فمن آدم مرّ هذا الاتصال إلى نوح ثم إلى إبراهيم، الذي نقله بدوره إلى مصر، حيث سمح الله تعالى لجزء من هذا المذهب الغامض بالتسرب، وقد تسرب منه جزء إلى المصريين، وبعض الأمم الشرفية وأضافته إلى أنظمتها الفلسفية، ثم تعلمه موسى قبل نزول الشريعة وألواح التوراه عليه، وقد استعمل هذا المذهب في حل الصعوبات التي واجهته أثناء إدارته للشعب الإسرائيلي، وهو مذهب يحظى بسرية تامة، قام موسى بتلقين أسرار هذا المذهب للشيخ السبعين ولم يجرؤ أحد أن يكتبه حتى أتى الرابي شمعون بن يوحاي (100-160م) والذي عاش وقت دمار المعبد الثاني، وهو أحد علماء التناييم، قام بكشف سر هذا المذهب لتلاميذه وابنه الحبر اليعازر، ووزير الحبر آبا اللذان قاما بعد وفاة شمعون بترتيب أطروحات هذا المذهب، وسموا هذه الأطروحات الزوهار ⁶(Zohar) ، ما نلاحظه من خلال هذا النص أن تعاليم القبالة (كبالة) مقدسة كونها صادرة بن الإله، وأنها بذلك أقدم من التوراة، وأنه نظرا لأهميتها كانت تنقل من المعلم إلى المريدين شفاهة وسرية تامة إلى أن تم تدوينها في كتاب الزوهار، وينكشف عنها حجاب السرية.

هذا عن التأريخ الذي قدمه القباليون حول نشأة القبالة وتطورها، ولكن في المقابل هناك تأريخ آخر قدمه علماء تاريخ الأديان والذين أكدوا أن هذا المذهب الصوفي ظهر ابتداء من القرن الثاني عشر (12م)، وهذا ما يشير إليه آلان أنتومان في قوله: "... هناك دليل على وجود

الفكر الثيوصوفي في الديانة اليهودية، والذي يأتي من منطقة بروفنس الواقعة في جنوب فرنسا، والتي أصبحت خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر مركز النشاط الفكري اليهودي، حيث ترجم فيها كثير من النصوص الفلسفية العربية وغيرها إلى العبرية، وفيها وجد العديد من الرابينين اليهود يتبنون الأفكار القبالية منهم إبراهيم بن داود والذي يعتبر شيخ صوفية بروفنس ولكن كتابات هؤلاء الرابينين المتعلقة بالقبالة كانت قليلة مقارنة بالكتابات المتعلقة بالهالاخاه (الشريعة) ولعل السبب في ذلك هو إصرارهم على أن تبقى تعاليم القبالة سرية تقتصر على فئة قليلة من رجال النخبة"⁷، غير أن حجاب السرية هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انكشف بداية القرن الثالث عشر حيث قام كل من بتشاك وغزرا وهما من تلاميذ إبراهيم بن داود قاما بكتابة الوثائق القبالية الأولى، والمتمثلة في تعليقات حول سفر يتزيراه (Yetsirah) وهي أطروحة كونية، أما إسحاق الأعمى ابن إبراهيم بن داود فقد قام بتطوير عقيدة (Sefirot) ، وقد أشار آلان أنتومان إلى هذا في قوله: "أقام ابنه إسحاق الأعمى (1160-1235) تعاليمه على كتاب الباهير (Bahir) ، ثم قام بتطوير عقيدة السيفيروت (Sefirot) والتي يعتبرها مراحل للفيوضات الإلهية يعبرها الصوفي عن طريق الصلوات"⁸.

وفي منتصف القرن الثالث عشر انتقل مركز القبالة إلى إسبانيا أين نشأت حلقات صوفية، حاولت التواصل مع الإله عن طريق التأمل في تجلياته النورانية، وكذا التأمل في حروف الكتاب المقدس وقيمها العددية، وفي هذه الفترة أيضا ظهر إبراهيم أبو العافية (1240-1292م) الذي أقبل على دراسة الشريعة وشروحها والمشناه والتلموذ والحسابات القبالية..

2.2 مصادر شروح القبالة (الكبالاه)

للقبالة كتب تعنها في شروحها منها كتاب (الزوهار) الذي ظهر في عام 1280 والذي يطلق عليه بالعبرية اسم (النور الساطع) أو (الإشراق)، وهو أهم كتاب للتراث القبالي وهو لدى اليهود أكثر قداسة من التلموذ وهذا ما يشير إليه جوزاف دان في قوله: "إن الزوهار كتب من طرف الحكيم شمعون بن يوحاي في القرن الثاني الميلادي في عصر لإمبراطورية لرومانية وله مكانة دينية رفيعة عند اليهود الذين يحجون إلى قبره ويحتفلون كل عام بعيد يعرف باسمه (قليلوت ربي شمعون)، وقد كان الرومان قد حكموا عليه بالإعدام واختفى وألف الزوهار"⁹

وإن كان جوزاف دان قد أكد في نصه هذا أن مؤلف الزوهار هو الحاخام شمعون بن يوحاي الذي ألفه في القرن الثاني للميلاد فإن الدكتور عبد الوهاب المسيري يذكر في موسوعته أن

هناك رأي آخر يرجع تأليف (الزوهار) إلى موسى دي ليون، حيث يقول: "الزوهار كلمة عبرية تعني الإشراق أو الضياء وكتاب (الزوهار) هم كتب التراث القبالي وهو تعليق صوفي مكتوب بالأرامية على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي حسب بعض الروايات إلى ما قبل الإسلام والمسيحية، وهو ما يحقق الاستقلال الفكري (الوهمي) لليهود وكتابته بلغة غربية، تحقق العزلة لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية، وينسب الكتاب أيضا إلى أحد معلمي المشناه (تنائيم) الحاخام شمعون بن يوحاي (القرن الثاني) وإلى زملائه، ولكن يقال أن موسى دي ليون (مكتشف الكتاب في القرن الثالث عشر) هو مؤلفه الحقيقي ومؤلف أهم أجزائه، وأنه كتب بين عامي (1280 و1285) مع بدايات أزمة يهود إسبانيا"¹⁰

أما عن المواضيع التي يناقشها كتاب الزوهار فيحدد مرسيا إلياد في قوله: "يتناول الزوهار الكثير من الأفكار لقبالية مثل طبيعة الإله والفيوضات الإلهية (Sefirot) من حيث طبيعتها وعملها والأسماء الإلهية، كما تناول الزوهار فكرة الخلاص والمشيح وروح الإنسان ومصيرها"¹¹

وإضافة إلى كتاب (الزوهار) هناك مصدرين آخرين لشروح الكبالاه (القبالة) وهما: (الباهير : Bahir) الذي وكما أشرنا سابقا أقام إسحاق الأعمى ابن إبراهيم بن داود تعاليمه عليه، وكتاب أو سفر (ياتزيراه Yetsirah) وهو يشرح الكيفية التي خلق الله بها العالم، وهذا ما يشير إليه الدكتور علاء الحلبي في قوله: "تقول الأسطورة بأن تعاليم القبالة كانت تتناقل شفها منذ عهد غابرة تسبق زمن إبراهيم الخليل، لكن أول ظهور تاريخي معروف للقبالة بشكل مكتوب كان من خلال الكتاب المشهور سفر ياتزيراه (كتاب التكوين)، كان هذا الكتاب الأخير مثل عمل مختصر يشرح بشكل مبسط البنية الأساسية للقبالة، متناولا موضوع خلق الكون عبر مسار أو مسلك، وعشرة مقامات (سيفيروت بالعبرية)، وتمثل أرقام وتجليات أو دوائر أو مجالات أو قوى بالإضافة إلى الأحرف الـ 22 للغة العبرية، ينسب هذا الكتب للهاخام عاقبة بن يوسف (Akiba Ben Josehp) مؤسس الحاخامية اليهودية والذي قتل على يد الرومان عام 135م لكن الدلائل تقول بأن الكتاب يعود إلى تاريخ أبكر بكثير"¹²

وهكذا مزّت القبالة (الكبالاه) بعدة تطورات لعل أهمها هو قيام الدكتور ميخائيل لايمان سنة 1991 بفتح مؤسسة سميت بمؤسسة أبناء باروخ نسبة إلى أستاذه الحاخام باروخ سالوم شلج معلم الحكمة القبالية، ووالد أستاذه الحاخام يهودا شلج الذي يطلق عليه

صاحب السلم، وتقوم هذه المدرسة بتعليم حكمة القبالة علانية وبأسلوب يجعل منها الحل الوحيد للأزمة الإنسانية الراهنة من إحباط وانعدام المغزى من الحياة. ومن المواضيع التي تناولها الكباليون (القباليون) في كتاباتهم نذكر موضوع وحدة الوجود، والحلولية والاتحاد بالإله والفيوضات الإلهية (التجليات النورانية العشرة)، وهي في الحقيقة مواضيع مرتبطة في معناها بعضها البعض وتجسد الحلولية القبالية (الكبالية)، كما أنها مفاهيم يستخدمها القباليون في تفسير الكيفية التي خلق بها الله العالم.

3. معنى الحلولية في القبالة (الكبالة):

قبل التحدث عن الحلولية في الديانة اليهودية وفي الفكر القبالي وجب الإشارة إلى وجود نوعان من التصوف: أما الأول فهو التصوف التوحيدي يؤمن بأن الله خالق للكون ومتجاوزا للطبيعية، والنوع الثاني حلولي يؤمن بالواحدية الكونية وبأن الإله حال في الإنسان والطبيعة والتاريخ، والتصوف اليهودي ينتمي إلى النوع الثاني أي هو تصوف باطني حلولي متطرف، ويشير الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري في موسوعته إلى معنى الحلولية الكمونية اليهودية فيقول: "الحلولية الكمونية اليهودية هي القول بأن العالم بأسره الإنسان والطبيعة يرد إلى جوهر واحد أو مبدأ واحد كامن في المادة وهو مصدر بقاءها وحركتها، هذا المبدأ أو الجوهر يسميه دعاة وحدة الوجود الروحية الإله، فيحل الإله في الإنسان ثم يحل في بعض ظواهر الطبيعة ثم يحل فيها جميعها بغير استثناء حتى يصبح حالا في كل شيء (الإنسان والطبيعة) كما فينا فيه ويصبح الإله والعالم وكل الموجودات وحدة واحدة لا وجود مستقلا للواحد عن الآخر أي أن الإله يصبح متوحدا مترادفا مع سائر مخلوقاته (الإنسان والطبيعة) لا وجود له خارجها ومع هذا يظل محتفظا باسمه، وهذا ما يشير إليه بأنه حلولية شحوب الإله، حيث تمتحى الثنائيات في الكون إلى حد كبير ولا يبقى منها سوى الظلال والألفاظ، وتختفي إمكانية التجاوز ولا يبقى سوى وهم التجاوز، وهذه هي وحدة الوجود الروحية، ثم يفقد الإله اسمه ويطلق على المبدأ الواحد عبارات مثل: قانون الحركة أو قوانين المادة، فتمحى الثنائيات تماما بما في ذلك الثنائية اللفظية وتسود الواحدية ويزول وهم التجاوز وتنتقل من وحدة الروحية إلى وحدة الوجود المادية وما نسميه حلولية موت الإله، أو حلولية بدون إله"¹³، إذن الحلولية في الفكر القبالي تعني حلول الإله في الإنسان ثم في الطبيعة والتماهي فيها، ويفضي هذا إلى وحدة الوجود أي أن الإله والطبيعة جوهر واحد، فالإله لا يتجاوز الطبيعة، والجدير

بالذكر أن القبالة (الكبالاه) استوحت معنى الحلولية من العهد القديم والتلمود ويوضح لنا الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري هذا في قوله: "...ومن المصادر الأخرى الأساسية للقبالة فكرة الشريعة الشفوية التي تضاهي الشريعة المكتوبة وتتفوق عليها، فهي فكرة حلولية متطرفة تساوي بين الخالق ومخلوقاته، وقد تعمق التيار الحلولي الذي يسري في العهد القديم وازداد كثافة في التلمود حتى اكتسب أبعادا متطرفة في كثير من الأحيان ولكن النزعة الحلولية في التلمود ظلت مختلطة بعناصر أخرى توحيدية تحددها وتحد منها، وما فعله القباليون فيما بعد هو أنهم اقتبسوا من التلمود المقاطع والآراء ذات الطابع الحلولي ونزعوها من سياقها ودفعوها إلى نتیجتها المنطقية المتطرفة"¹⁴

وهناك مرجعية أخرى اقتبس منها القباليون فكرة الحلولية وهي الغنوصية والتي تقول هي أيضا بفكرة الحلولية. يقول الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري: "يلاحظ التماثل البنيوي بين المنظومة الغنوصية والقبالة، وأن البنية الغنوصية الأسطورية العامة تتحقق بشكل مذهل في القبالة وخصوصا اللوربانية، وكل من الغنوصية والقبالة نسق حلولي واحد عضوي مغلق، يلغي المسافة بين الإله والإنسان والطبيعة وبين الكل والجزء، وكل هذا يطرح قضية التأثير والتأثر، مما لا شك فيه أن ثمة علاقة تأثير وتأثر بين الكتابات الغنوصية والقبالة [...] الغنوصية والقبالة منظومتان واحدتان تتداخل فيهما الأسماء والشخصيات والمفاهيم، فالآدم قدمون هو العالم وهو التجليات العشرة النورانية (سيفيروت) ومن ثم فهو الإله وهو أيضا الإنسان، والشخينة هي التعبير الأثنوي عن الإله ولكنها في واقع الأمر كنيسة يسرائيل، أي الشعب اليهودي توجد نقاط تشابه بين الإله الخفي في المنظومة الغنوصية والأين سوف (الجوهر الإلهي اللانهائي والذي لا نظير له) في القبالة: الأين سوف إله غير شخصي، علاقته بالعالم أنطولوجية تماما مثل علاقة الإله الخفي بالعالم في المنظومة الغنوصية، فهو إله لا يكثرث بالعالم، ولكنه في الوقت نفسه سبب الوجود والأين سوف نشيط دائما ومفكر دائما ومن خلال عملية تفكيره في ذاته يفيض العالم عنه تماما كما يحدث في المنظومة الغنوصية وتأخذ عملية الفيض شكل درجات تسمى الأيونات في المنظومة الغنوصية والسيفيروت أو التجليات النورانية العشرة في القبالة"¹⁵، ما نتبينه من خلال هذا النص أن فكرة حلول الإله في الإنسان والطبيعة اقتبسها القباليون من المنظومة الغنوصية، ويعبر عن هذا الحلول بالفيض الإلهي الذي يتم عن طريق الأيونات في

العنوصية، ويتم في قبالة الزوهار (القبالة النبوية) بالسيفروت أو التجليات النورانية العشرة، وفي القبالة اللورانية بالانكماش أو ما يسمى بالغبرية تسيم تسوم.

1.3 معالم الحلولية في قبالة الزوهار (القبالة النبوية):

تتجلى الحلولية في الفكر القبالي النبوي من خلال الحديث عن التجليات النورانية العشرة أو ما يسميه قباليو هذا التيارب السيفيروت (Sefirot) ويشير الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري في موسوعته إلى معنى السيفيروت قائلا: "... والسيفيروت تجليات الإشعاعات الصادرة من النور الذاتي للإله، وهي التي أوجدت العالم فهي جذع المخلوقات وهي الواسطة وحلقة الوصل بين الإله والكون، فإذا كان الإله هو يقودا ريشوناه (النقطة الأولى)، فإن التجليات هي النقط (نقودوت) وهي أدواته في خلق العالم وحكمه وهي أيضا الأوعية التي يفيض منها الإله"¹⁶. بمعنى أن القباليون يفسرون الكيفية التي خلق بها العالم، بالفيض الإلهي، أي أن الإنسان وسائر الموجودات فاضت عن الذات الإلهية، وهذا يعنى أن الإله حال في الإنسان والطبيعة والتاريخ كما يقول القباليون ويشرح لنا الدكتور علاء الحلبي التصوّر القبالي (القبالي) للتجليات النورانية العشرة (Sefirot) ، وعلاقة الإله بالعالم في قوله: "... من هذه الإجابة الأولى تأتي الإجابة الثانية للقبالة والتي توصل الله بشكل غير مباشر مع العالم، يصورون الله كمرآة تشع نورا ساطعا، هذا النور الساطع ينعكس على مرآة ثانية ثم مرآة ثالثة ثم إلى رابعة وهكذا كلما انعكس النور على المرآة التالية يفقد جزءا من سطوعه إلى أن يصل للمرحلة الأخيرة والمتمثلة بالعالم الدنيوي يصبح النور باهت جدا، في قلب هذا المفهوم المتعلق بانعكاس الضوء تقبع النظرية القبالية حول عملية خلق العالم في البداية لم يكن موجود سوى الله، ثم أرسل من نفسه انبعثا غالبا ما يوصف بأنه نور، من هذا الانبعث الأول، انطلقت تسعة انبعثات أخرى، فأصبح المجموع عشرة، وتسمى السيفيروت (Sephiroth).

علم القباليون القدامى بأن الأضواء الساطعة للسيفيروت تحتوي على اسم الله المقدس، كان تفسيرهم أن السيفيروت تمثل العالم، أو الكون والله هو العالم، وبالتالي فالسيفيروت تمثل جوانب أو أجزاء من الله، وتمثل أيضا جوانب الكون"¹⁷. وفي هذا النص إشارة أيضا إلى وجود نزعة حلولية في الكبالاه (القبالة) إذ يمثل الانبعث الصادر عن الذات الإلهية، فيضا إلهيا، فالإنسان والكون وكل الموجودات خلقها الله من نوره، هذا ويزعم القباليون

(القباليون) أن الإنسان والكون وكل الموجودات كانوا قبل الخلق داخل الذات الإلهية، ثم انبثق آدم قدمون عن هذه الذات الإلهية على صورة الإله نفسه فهو الإنسان الكامل والأصلي، بعدها انبثق الكون بنجومه وكواكبه، ويرى القباليون أن الإله كان خفيا كالعدم أو انبثق من العدم (الآيين)، وكان بلا هيئة ولا صورة مطلقة لا يحده مكان ولا زمان، ولا يدركه العقل في مرحلة تسمى أين سوف أو عين سوف، ثم بدأت التجليات النورانية العشر وهي: التاج، الحكمة، الفهم، الرحمة، العزم، الجمال، النصر، المجد، الأساس، المملكة.

فالآين سوف هو الإله الخفي انبثق من العدم أو اللاشيء والذي يطلق عليه القباليون لفظ (الآيين = العدم)، والآين سوف هو اللانهائي أو العلة الأولى وهو أيضا العدم أو التخفي كما ذكرنا، وبالتالي يكون الآيين (العدم) والإله شيء واحد، أي أن الإله أوجد نفسه بنفسه، ويشير الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري إلى هذا في قوله: "ويتبدى النسق المغلق في الرؤية القبالية لخلق العالم، فهذا الخلق لم يكن من العدم ولم يتم دفعة واحدة كما هو الحال في الديانة التوحيدية، وإنما عن طريق الفيض الإلهي، وقد ذكر رفايل باتاي أن رؤية القبالة للإله تطورية، أي أن الإله وجد أو أوجد نفسه على مراحل داخل الزمان، وقد تم خلق العالم من خلال عملية صيرورة مركبة بحيث يتحول اللاشيء الإلهي إلى الكيان الإلهي، ويتجه من الداخل إلى الخارج، وتبدأ هذه العملية في جذر الجذور أي في الآين سوف التي يمكن أن تترجم إلى اللانهائي، أو اللامحدود أو العلة الأولى أو الذي لا نظير له، الذي لا يستطيع العقل الإحاطة به ولكن الآين سوف هو أيضا الآيين أو اللاشيء أو العدم أو الشخصي الإلهي ولذا فإنه يسمى الإله الخفي الذي لا يمكن أن يكون إلها بالمعنى المألوف للكلمة، كما لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه، وقد أشارت إليه القبالة بأنه المطلق الذي يقطن في أعماق لعدم، وقد انبثق الآن أي أننا الإلهية عن الآيين (العدم) ويشير القباليون إلى أن الآيين والأني يضمن الحروف الساكنة نفسها وهو ما يعني بأن العدم والإله هما شيء واحد وقد تمت عملية التحول هذه على شكل تطور من الهو إلى الأنت إلى أننا على النحو التالي:

- الهو: الإله المتخفي المنفصل عن العالم
- الأنت: الإله الذي يعبر عن كيانه والذي يدركه الناس
- أننا: الإله المكتمل المنجي الذي عبر عن كماله المطلق.

وهذه هي المرحلة التي يمكن أن يقول فيها الإله لنفسه أنا وأنا هذه هي الشخيانه، أي جماعة إسرائيل وهي المرحلة التي يجد فيها الإله نفسه [...] وهكذا انبثق الإله من ذاته وظهر الآني من الآيين، أي من العدم وظهرت هذه الخاصية العلوية السماوية التي تشكل بداية الفيض الإلهي وكان يقال لها الفكر الإلهي (محشفاه) ثم أطلق عليها فيما بعد اسم الإرادة الإلهية [...] عند هذه النقطة تبدأ سلسلة الفيض التي تنبثق من الإرادة الإلهية¹⁸. وبما أن الإنسان أوجده الإله على صورته فهو إنسان كامل (آدم قدمون) والذي يسمى لدى القباليون الإنسان الأصلي. وجسم آدم قدمون يعكس التجليات النورانية العشرة السيفيروت تدرج هذه التجليات على هيئة شجرة يطلق القباليون عليها اسم شجرة الحياة ويتخيلون أن جذورها في السماء وفروعها في الأرض، فالخام القبالي يتسلق الشجرة مقلوبة ويصعد من عالمه الدنيوي المادي ليصل إلى الإله في السماء ويسمون هذا بالالتصاق بالإله (ديفيقوت)، وعليه فإن شجرة الحياة هي صورة للتجليات النورانية العشرة، وكذلك هي صورة من هيئة (آدم قدمون)، حيث أن كل جزء من هذه الشجرة يقابله عضو بشري وجرم من أجرام السماء (كواكب ونجوم) كما أن هذه الشجرة تتضمن مسلكين: مسلك الفيض الإلهي ومسلك التوحد مع الإله أو الديفيقوت. ويوضح الدكتور علاء الحلبي هذا في قوله: "كل من الانبعاثات العشرة لشجرة السيفيروت (Sephiroth) تسمى السيفيروت (Sephira) وتشكل جميعا في النهاية ما أصبحت تسمى بشجرة الحياة؛ هذه الشجرة تمثل الصورة المركزية للتأمل القبلاي، حيث مرة أخرى كل سيفيروت يوصف أحد مظاهر الله وعند تناولها بالجمع تمثل اسم الله المقدس. هذه الشجرة تمثل المسلك الذي اتبعه الروح المقدس خلال انحداره إلى العالم الدنيوي (المادي) وفي نفس الوقت يمثل المسلك الذي وجب على الإنسان إتباعه صعودا للوصول إلى الله".¹⁹

ونصل إلى التعريف بالتجليات النورانية العشرة وما تمثله وهي كالتالي:

1. كثير أو كثير عليون: أي التاج الأعلى وهو أيضا الإرادة المقدسة أو الرغبة المقدسة، ويشار إليه بالتاج.
2. حوخمة: أي الحكمة أول التجليات المتعينة وهي الفكر الإلهي الكوني الذي يسبق الخلق.

3. بيناه: أي الفهم، وهو عكس الحكمة فهو العقل الذي يميز بين الأشياء، ولذلك هو المرحلة التي يتحقق فيها النموذج الخفي ويأخذ شكلا محددا وهي العلة الأنثوية الأولى.
4. جبدولاه: أي العظمة وأحيانا بشار إليها بلفظ حسيد وهي الحب الفائض للإله أو الرحمة.
5. جبوراه: أي القوة أو السلطة وغالبا ما يشار إليها بلفظ دين أي الحكم الصارم وهي مصدر الحكم الإلهي والشرعية.
6. تيفثيريت: أي الجمال أو الجلال ويشار إليها أيضا بلفظ رحاميم أي التعاطف وهو الوسيط بين التجلي الرابع والتجلي الخامس ليأتي بالتناسق والرحمة للعالم، ويقال أن هذا التجلي أهم التجليات ربما لتوسطه كل التجليات ولدوره في عملية الخلق.
7. يتسح: أي التحمل أو الأذية أو النصر.
8. هود: أي الجلالة أو المجد أو العظمة.
9. يسود عولاه: أي أساس العالم ويشار إليه أحيانا بلفظ يسود وحسب أي الأساس، وكذلك التساديك أي الصديق أو الرجل التقي وهو الذي تركز عليه كل التجليات السابقة.
10. ملكوت: أي الحكمة أو مناره أي الجوهرة".²⁰

هذه هي درجات السيفيروت أو التجليات النورانية العشرة، وكما ذكرنا أنفا فإن هذه التجليات يجسدها جسد آدم قدمون، فالتاج (كثير) والحكمة (حوخمة) والفهم (بيناه) تشكل هذه التجليات الثلاث رأس آدم قدمون، أما التجلي الرابع الرحمة (حيدولاه) والخامس العزم (جبوراه) يمثلان ذراعاه والتجلي السادس الجمال (تفثيريت) يشكل صدره، والتجلي السابع النصر (تيسح) والثامن المجد (هود) يشكلان ساقاه والتاسع الأساس (يسود) يشكل عضوه الجنسي والتجلي العاشر يشير إلى عضو التأنيث.

يقول الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري: "يشار إلى التجليات العشرة باعتبارها آدم قدمون أي الإنسان الأصلي والإنسان الأزلي الذي يتوجه التاج ويوحد الملكوت عند قدميه وتشكل أعضاء جسمه التجليات العشرة كما تشكل التجليات الثلاثة الأولى رأسه والرابع والخامس ذراعاه والسادس صدره والسابع والثامن ساقاه والتاسع عضوه الجنسي (عادة المذكر)

والعاشر إما يشير إلى الصورة كلها أو يشير إلى الأنثى التي تصاحب الذكر أو يشير إلى عضو التأنيث".²¹

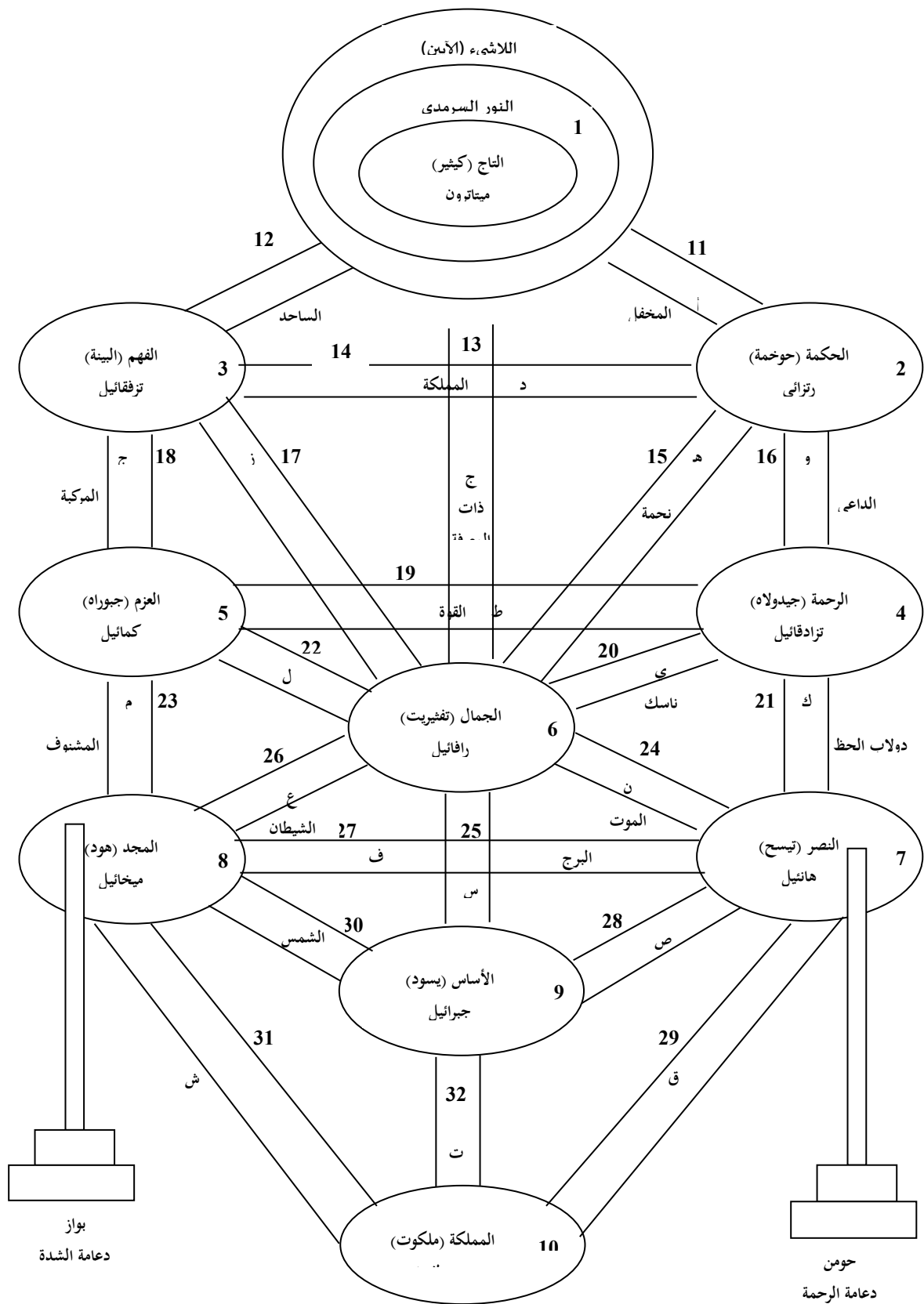
وتتضمن شجرة الحياة أيضا مسالك الحكمة وهي مسالك مكوّنة من مسالك الأرقام، ومسالك الحروف الأبجدية العبرية الاثني والعشرون.²² يوضح الدكتور علاء الحلبي هذا في قوله: "هذه الشجرة تحتوي على عشرة دوائر تمثل الأرقام 1 إلى 10 وموصولة مع بعضها بـ 22 قناة أو مسلك، وهذه المسالك تمثل الأبجدية العبرية المؤلفة من 22 حرف، إذا أضفنا الأرقام العشر الأوائل مع المسالك (الأحرف) الـ 22 يصبح نخرج بالرقم السحري 32 كنتيجة نهائية، والذي حسب التعاليم يمثل مسالك الحكمة الـ 32، وحسب التعاليم القبلانية أيضا تعتبر الأحرف والأرقام مفاتيح كل المعرفة، حيث من خلال الاستعانة بالنظام السري الذي استخدم لترتيبها سوف تكشف كافة أسرار الخلق، ولهذا السبب تسمى مسالك الحكمة، هذه الحقيقة لخفية لا زالت محجوبة بعناية في منظومة الدرجات الماسونية الـ 32".²³

كما أن شجرة الحياة هاته تتضمن أيضا أو تعبّر عن العلاقات الملائكية، إذ لكل تجلي أو مقام (سيفيروت) سيد ملائكة وهذا الأخير هو القوة المسيطرة للتجلي الذي يمثله، فالإله يعبّر عن طاقته الخلاقة في الكون والموجودات من خلال الملائكة فهم أعوانه، ويمكن للناس الاتحاد الروحي مع الرب بتركيزهم على الطاقات المختلفة، وعن علاقة الأسياد الملائكة بشجرة الحياة يقول الدكتور علاء الحلبي: "وفقا لتعاليم القبالة كل مقام في شجرة الحياة مرتبط بسيد ملائكة، هذه العلاقة الملائكية تمثل القوة المسيطرة للمقام في عالم برياه عالم رؤساء الملائكة في العوالم الأربعة، ينظر إلى أسياد الملائكة بأنها أعوان الله وأعلى تجليات السيفيروت (المقامات) تحت اللّجة (الهوية) ويمثلون رموزا لأعلى البلوغ في كل من مقامات الشجرة والتي يمكن فهمها أو تصورها ذهنيا، تمثل هذه الملائكة أنقى تجليات الألوهية التي تتجسد بصيغة التعددية في الكون وبالتالي تمثل هذه تركيز أقوى لأنظمة الصوفية التنويرية وكذلك لسحرية، بينما على الجانب الآخر خلال مراحل التطور الروحي، هذه الكيانات تمثل الغايات الأسى للشخصية البشرية".²⁴

وما نخلص إليه عن شجرة الحياة (السيفيروت) أنها مخطط بياني يفسر ويشرح الكيفية التي خلق بها الله العالم، فهي تشريح لبنية الكون من جهة، ولأن آدم قدمون أوجده الله على صورته، فإن شجرة الحياة هي مخطط يشرح أيضا البنية الروحية لكل إنسان، وبالتالي فإن

تفسير القباليون للكيفية التي خلق بها الله العالم، إنما هو تفسير حلولي محض يتمثل في (الفيض الإلهي).

وهذا رسم أو مخطط لشجرة الحياة (السيفيروت القبالية) يوضح كل ما تمثله هذه الشجرة من فيوضات وعلائق، والمخطط مقتبس من كتاب الدكتور علاء الحلبي (في رحاب الكل العظيم- الفلسفة الخالدة)، مع إضافتنا للعلائق الملائكية في هذه الشجرة حسب ما ذكره الدكتور علاء الحلبي في كتابه هذا (2013، ص.ص:74-78)



مخطط شجرة الحياة (سيفيروت)، المقامات في الشجرة من 01 إلى 10 تمثل طاقة ساكنة، المسالك والمنارات الرابطة بها من 11 إلى 32 تمثل طاقة ديناميكية، كل مسلك يُمثَّل بحرف أبجدي عبري وكل تجلي يتضمن اسم رئيس ملائكة والقوة المسيطر له.

2.3 معالم الحلولية في القبالة اللورانية:

كما أشرنا سابقا فإن القبالة اللورانية هي تيار أو قسم ثان للقبالة، بعد قبالة الزوهار (القبالة النبوية)، ويعد إسحاق لوريا هو مؤسس القبالة اللورانية، هذه الأخيرة تحدثت أيضا عن الكيفية التي خلق بها الله العالم، وهي عملية تمثل الحلول، وقدم إسحاق لوريا صورة لعملية الخلق هذه من خلال ما يسميه عملية الانكماش الإلهي (تسيم تسوم) وعملية تهشم الأوعية (شفيرات هكليم) وعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون). Tikun :

فالإله في نظر إسحاق لوريا كان يملئ الوجود، بحيث لم يسمح وجوده بهذا الشكل من تواجد شيء آخر، ولأجل أن يخلق الإله الموجودات، كان لابد أن ينكمش ليتترك فراغا (أي ينقص من وجوده ليتسع المجال لخلق الموجودات، وبعد انكماشه انبثق عن نوره آدم قدمون (الإنسان الأصلي) وانبثقت من عيون هذا الأخير أشعة النور الإلهي على شكل شرارات (نتسوتسوت) هذه الشرارات كان من المفروض أن تحبس أو تجمع في أوعية (كليم) ولكن ولأن هذه الأوعية أضعف من أن تتحمل قوة هذا النور تحطمت (التهشم) وتبعثرت وهذه الحادثة ترمز إلى تشتت الشعب اليهودي، وبهذا التهشم فقد الإله وحدته ولكي يسترجعها ويحدث الخلاص للعالم وجب حدوث عملية إصلاح الخلل الكوني والذي يسمى بالعبرية (تيفون) والتي تعني توحيد الشعب الإسرائيلي (الشيخيناه) بالإله وهي نظرة حلولية أيضا.

ويوضح الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري هذا في قوله: "... ومن منظور لوريا كان الخالق يملأ الوجود باعتبار أن الذات الإلهية لا نهائية ولا تقبل التجزئة، ولا يوجد مكان لا يملؤه الحضور الإلهي، وهذه الذات لا تسمح بوجود شيء آخر، ولتتم عملية الخلق كان لابد أن تنكمش هذه الذات [...] وتهشم الأوعية مفهوم أساسي في القبالة اللورانية، وتقع حادثة تهشم الأوعية أثناء عملية الخلق، حينما تخرج من عيون الإنسان الأصلي أشعة النور الإلهي التي تأخذ شكل شرارات كان من المفترض أن تجمع في أوعية (كليم)، ولكن الأوعية كانت

اضعف من أن تتحمل هذا النور فتهشمت وتبعثرت، والحادثة رمز شتات الشعب اليهودي، وهي فكرة حلولية مغالية تربط بين الوجود الإلهي والشعب [...] وتتحدد عملية الإصلاح بعد تخليص الشرارات الإلهية المبعثرة بعد انكماش الإله (تسيم تسوم) وبعد حادث تهشم الأوعية، والهدف من عملية الإصلاح أن يصل الإله إلى وحدته ويعم الخلاص العالم وهي عملية كونية تاريخية شاملة يشارك فيها الجنس البشري بأسره، ولكنها تعتمد بالدرجة الأولى على جماعة إسرائيل ويضم المصطلح فكرة أن الذات الإلهية لا تشكل وحدة كاملة لا في الماضي ولا في الحاضر، وأنها ستصل إلى هذه الوحدة في المستقبل من خلال جهد الإنسان وهذه فكرة حلولية متطرفة²⁵، إن أهم ما يمكن استنتاجه من تصور القباليون لعملية الانكماش الإلهي وعملية التيقون أن الإله بحاجة إلى مشاركة الإنسان له وخاصة الشعب الإسرائيلي واتحاده معه من أجل أن يسترجع الإله توحده ومن ثمة حدوث الخلاص، وهذا يسميه الحسيديون - نسبة إلى الحسدية وهي حركة قبالية تفرعت عن القباله اللوربانية- بالالتصاق بالإله الديفيقوت بالعبرية.

4. خاتمة:

ما نخلص إليه هو أن الكبالاه (القبالة) وإن كانت لها مرجعيات فكرية متعددة ومتباينة في توجهها الحلولي - مثل العنوصية، وبعض الأديان والثقافات الشرقية القديمة مثل الثقافة المصرية، والديانة الهندوسية،... الخ وكذا الفلسفة اليونانية- فإن أهم تصوراتها الحلولية لمسألة الخلق قد استمدتها من العهد القديم، حيث اقتبست فكرة شعب الله المختار وأرض الميعاد،... الخ واستثمرت هذه الأفكار في تفسيرها لمسألة الخلق بتصور حلولي.

فالإله في نظرها ليس حالا في الإنسان فحسب وإنما هو حال في الإنسان والطبيعة والتاريخ، وإن كانت المسيحية تؤمن بحلول الإله في المسيح، فإن حلولية الكبالاه اليهودية المستمدة من العهد القديم تجمع بين الثالوث: الإله، الأرض والشعب الإسرائيلي، فالإله يحل في الأرض لتصبح أرضا مقدسة، وهذا يرمز في العهد القديم إلى أرض الميعاد التي وعد الرب بها إبراهيم عليه السلام، ويحل الإله أيضا في الشعب (الشيخيناه- شعب إسرائيل) ليصبح مقدسا وهذا يقابله مفهوم

شعب الله المختار في العهد القديم (عم قندوش بالعبرية) وبالتالي فإن الكبالاه (القبالة) مذهب صوفي باطني متميز بطابعه الحلولي.

5. قائمة المراجع:

- ¹ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (نموذج تفسيري جديد)، ط1، المجلد الخامس، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص161
- ² المرجع نفسه، ص164
- ³ Joseph Dan, kabbalah a very short introduction, Oxford university press, 2006, P2
- ⁴ Sholem Gershom, kabbalah Israel keter publishing, house Jerusalem, LID, 1974, P3
- ⁵ ميخائيل لايتان، علم الكبالاه للمبتدئين (دليل البحث عن الحكمة الخفية)، ط3، دار النشر (حكمة الكبالا)، 2005، ص8
- ⁶ Samuel Liddell Macgregor Mathas, the kabbalah unveiled, www.blackmask.com, P7.
- ⁷ آلان أثنومان، اليهود عقائدهم الدينية وعبادتهم، تر: عبد الرحمن الشيخ، مراجعة: أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2004، ص185
- ⁸ المرجع نفسه، ص185
- ⁹ Joseph Dan, kabbalah a very short introduction, op.cit, PP29-30.
- ¹⁰ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد 5، مرجع سابق، ص181
- ¹¹ مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر: عبد الهادي عباس، ج3، دار دمشق، 1986، ص187
- ¹² علاء الحلبي، في رحاب الكل العظيم، الفلسفة الخالدة مجموعة من نحن، الجزء السابع، الناشر دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر، دمشق، 2013، صص:31.30
- ¹³ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص30
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص166
- ¹⁵ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص47.
- ¹⁶ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، صص:176.175
- ¹⁷ علاء الحلبي، في رحاب الكل العظيم، الفلسفة الخالدة، مرجع سابق، ص66
- ¹⁸ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص171
- ¹⁹ علاء الحلبي، في رحاب الكل العظيم، الفلسفة الخالدة، مرجع سابق، ص66
- ²⁰ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص172 (بتصرف)
- ²¹ المرجع نفسه، ص172.
- ²² علاء الحلبي، في رحاب الكل العظيم، الفلسفة الخالدة، مرجع سابق، ص76.
- ²³ علاء الحلبي، في رحاب الكل العظيم، الفلسفة الخالدة، مرجع سابق، صص:78.77
- ²⁴ عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص186
- ²⁵ المرجع نفسه، ص186